

الشيخ بن حواء المستغامي ومنظومته سبيكة العقيان مكاتها في إنتاج المناقب الجهوية

بقلم د/صادق بن قادة

هو محمد بن محمد بن حواء بن محمد بن الجيلاني بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن عيسى التوجيني المستغامي كما جاء في منظومته في علم الموارث⁽¹⁾، وقال في أرجوزته سبيكة العقيان التي هي موضوع بحثنا، بأنه محمد بن محمد بن حواء بن قدار بن الجيلاني، وقال كذلك في مخطوط بيده لشرح ابن سعيد: «الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد: فقد تم نسخ شرح ابن سعيد يوم السبت الرابع من شوال عام اثنين وأربعين ومائة وألف (1142هـ/ أبريل 1730م) على يد كاتبه محمد بن محمد الموفق المشهور بأمه حواء بن قدار بن الجيلاني بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عمرو بن عيسى التوجيني نسبا الراشدي إقليميا المستغامي منشأ وقرارا غفر الله له ولوالديه أمين.»⁽²⁾

ويستخلص من نسبته، أنه من بني توجين القبيلة ذات الأصل البربري التي كانت تقطن بنواحي معسكر، وكونه راشديا إقليميا، يستخلص منه كذلك، أنه ينتمي إلى أهل الراشدية بسهل غريس، ومهما يكن من أمر فإن نسبته "المستغامي" هي التي اشتهر بها بحكم نشأته واستقراره بمدينة سيدي سعيد "مول النخلة و الجريد"، أي مدينة مستغانم.

وقد عبّر أحسن تعبير عن ذلك في بيت من أبيات سبيكة العقيان، قائلا:

«بها أنا مناضل عن وطني ومولدي ومرضعي وسكني»⁽³⁾

إذن ، فمسقط رأسه مستغانم وقد أكد ذلك بقوله: «وإنَّها لنا بها ولادة وسكن منذ سنين قُدِّرت عن نصف قرن يقرب»⁽⁴⁾

ولكن لا نعرف شيئا عن تاريخ ولادته، غير أن مارسال بودان (Marcel BODIN) رجح أنها كانت في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وهذا ما استنتجته من خلال تاريخ مؤلفاته، كمنظومته في علم الموارث السالفة الذكر، التي انتهى منها شيخنا يوم الإثنين الفاتح من جمادى الأولى سنة 1142 هـ الموافق لاثني وعشرين نوفمبر 1729م، ويقول بودان أنه ليس من الخطأ أن يكون مترجمنا قد بلغ الثلاثين من عمره، وفي منظومته المسماة "الريحانة المروحة" التي انتهى منها يوم السبت ثمانية وعشرون من ذي القعدة سنة 1176 هـ الموافق لشهر جوان 1763 م، أنه كان قد تجاوز بكثير الخمسين من عمره. وأغلب الظن أن مترجمنا عمر طويلا كما جاء في قوله:

عدرا لمن حنّ وإن أنينا جرا على فريق به الزمان تنورا
ييكى بكاء الذي أحبابه درجوا وأكسبه العمر الطويل تأخرا

وفي بيت آخر يقول:

هذا جزاء إمراء أحبابه انفرطوا من قبله وتمنى عمرا معمرا

وفيما يتعلق بتاريخ ، وفاته فإن الأستاذ أبا القاسم سعد الله يعتقد أنها كانت في أواخر القرن الثاني عشر الهجري(الثامن عشر ميلادي) غير أن مكان وفاته كان - كما هو معلوم- بمسقط رأسه حيث يوجد قبره خارج السور القلسم لمدينة مستغانم وهو مزار للتبرك به.

مؤلفاته:

ومن أهم ما أنتجه مترجمنا يمكننا أن نذكر في هذا المجال أربع منظومات وكتاب، ومن هذه المنظومات له واحدة في علم الموارث نظمت سنة 1729م، و"الريحانة المروحة على القلوب المقترحة"، و"الغوثة الكبرى" و"سبيكة العقيان في ذكر علماء مستغانم وأحوازه من الأعيان".

عصره:

وقبل أن نتعرض إلى العصر الذي عاش فيه ابن حواء المستغامي لا بد أن نذكر بعض الأحداث الجسام التي عرفتها منطقة مستغانم لكي نفهم الإطار التاريخي التي برزت فيه بعض الإنتاجات الأدبية والتي كانت بدون شك مؤثرة فعلا في إبداعه.

عرفت مدينة مستغانم خلال الحكم العثماني على غرار المدن الجزائرية الساحلية الأخرى فترات عصيبة من تاريخها المجيد حيث اشتدت عليها المحن منذ سقوط الدولة الزيانية، وتوالى عليها الحملات الصليبية الأسبانية التي ما إن احتلت المرسى الكبير سنة 1504 م ووهران 1509 م، حتى استهدفت مدينتي مزهران ومستغانم اللتين كانتا تأويان المهاجرين الأندلسيين، غير أن القدر لم يكتب أن تسقطا هاتان المدينتان المجاهدتان بين أيدي قوات المسخ والتهجين، وهذا بفضل صلابة أبنائها وفي طليعتهم علمائها النازحين وصالحها الناسكين الذين كانوا يحملون راية الجهاد، ويجرضون الحكام على حمل لواء الحرب ضد الغزاة الكفرة.

وفي هذا السياق يجدر بنا أن نذكر ناحية مستغانم، التي صارت بفضل الولي الصالح سيدي قدار دفين مينا، من الحماة للمهاجرين الأندلسيين عندما وطؤوا أرضها ووقعت ببعضهم - كما ذكر الحاج المهدي البوعبدلي - حوادث مؤلمة استغلها كثير من الكتاب وعمموا تهمهم على البلاد كلها. فذكروا أن مصير اللاجئين الأندلسيين ببعض شواطئ الجزائر كان نصيبهم القتل والنهب، و بالفعل، وقع ذلك لبعض اللاجئين سنة 1018 هـ أي بعد سقوط غرناطة بما يزيد على القرن وهو الجلاء

الأخير ، وقد ذكر ذلك المؤرخ أبو راس الناصري في كتابه "عجائب الأسفار" بقوله: «مات الشيخ محمد أقدار التوجيني دفين مينا (قرب البطحاء) سنة خمس وستين وألف (1065هـ) لكونه حرض الشيخ أحميدة العبد أن يغزو بسويد على هبرة لما فعلوه بالمسلمين الخارجين من غرناطة إلى مرسى أرزيو لما غلب عليهم قشتالة ، حتى أنهم كانوا يبقرون بطونهم لما يظنون من إبتلاع نحو جمهور فأتاه أحميدة المذكور من بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمة صحيح البخاري ثم ساروا و لقيتهم جموع هبرة فأهزموا و ركبت سويد أكتافهم فقتلوهم كيف شاءوا و في ذلك يقول شاعرهم :

بين أنصارات دوك و أنصارات قدار	جينا يا رب بين النار و النار
دوار من الملاح ما عزى من دوار	ميتين و عشرين قعدت في مشوار
لا بد للحي يتذكر الأحرار	لموت من الإلاه و أسبابه قدار

وكانت قبيلة سويد هذه من أهم القبائل العربية التي لعبت بهذه الناحية دورا عظيما في تاريخ البلاد، وكانت سويد إمارة بتنس تمتد من هذه المدينة شرقا إلى مصب نهر شلف غربا الذي لا يبعد كثيرا عن مدينة مستغانم.

والجدير بالذكر، أن هذه المدينة المجاهدة كتبت أثناء الحملات الإسبانية الصليبية صفحات من المجد والعزة، حيث تكسرت مرارا شوكة الأعداء الغزاة على أسوارها ، وهذا ما حدث للكونت الكودات حين حاول الإستيلاء عليها مرتين، وذلك في سنة 949هـ/ 1542م وفي سنة 952هـ/1545م، حيث باء بالفشل الذريع.

وفي المرة الثالثة استعد لها أحسن استعداد ولكنه هزم هزيمة شنعاء ، ودامت المعركة ثلاثة أيام خسرها فيها العدو عددا كبيرا من جنوده ، ومات في المعركة قائد الحملة العدوانية الكونت الكودات ومن حظ تاريخنا ، أن أحد شعرائنا الشعبيين شرك فيها وخاض غمارها فخلد تلك الأحداث في ملحمة شعبية وهو الشيخ الاخضر بن خلوف الذي ما زال أهل تلك الناحية يحيون ذكره سنويا، وبين شاعرنا الصبغة الدينية التي اكتستها هذه المعركة التي قال فيها:

يا سايلني عن طراد الروح قصة مزگران معلومة
يا سايلني كيف ذا القصة ما بين النصراني وخير الدين . الخ

وإذا أراد الباحث أن يتحدث عن العصر الذي عاش فيه بن حواء المستغامي فيبدو له أن حياته تزامنت مع فترة حرجة عرفتها الإيالة الغربية بدأت بتولي الباي بوشلاغم سنة 1690 بايا على مازونة وتلمسان بعد استشهاد الباي المجاهد شعبان الزناقي تحت صور وهران سنة 1687م. وكان الباي بوشلاغم قد نقل في سنة 1701م كرسي مملكته من مازونة وتلمسان معا إلى قلعة بني راشد ، ثم إلى معسكر التي اختارها قاعدة لأياله تتوسط مازونة وتلمسان، ولما فتح مدينة وهران 1708م نقل كرسي مملكته من معسكر إلى وهران وأقام بها مدة أربع وعشرين سنة إلى أن هاجمه الأسبان سنة 1732 م واحتلو وهران للمرة الثانية، خرج منها إلى مستغانيم وبقي بها حتى توفي سنة 1734م.

وهكذا ، صارت مستغانم عاصمة الأيالة الغربية تحت حكم المسراتية حتى سنة 1774 م زمن انتقال زمام الحكم إلى العائلة العثمانية بقدوم الباي عصمان بن إبراهيم الذي نقل مركز الأيالة

إلى معسكر ثانية حتى جاء الفتح الثاني لوهران بقيادة الباي المجاهد حمدي عثمان الكبير سنة 1792 نقل كرسي المملكة من معسكر إلى وهران.

والظاهر أن مدينة مستغانم حظيت أثناء حكم المرآتية بقدر كبير من الثقافة إذا جاء من خلفها شهدت تدهورا بالغا في الميدان الثقافي، حيث نضبت بها ينابيع المعرفة وغاب عنها رجال العلم والفكر ، وكثرت فيها المفاسد ، وهذا ما عبر عنه سيدي بن حواء بكل حزن في هذه الأبيات من سبيكة العقيان.

ءاه	على	أشياخها	الحمال	الوية	العلوم	والاعمال
ءاه	على	أوعية	العلوم	ءاه	على	ثواقب
ءاه	على	خيارها	الذين	كانوا	على	المنهاج
ءاه	على	حكّامها	الذين	كانوا	بحق	الله
لا	سيما	قاضي	القضات	المهدد	سلييل	منصور
إذ	كان	في	العدل	القريب	أية	كبرى
حتى	حتى	حكى	أشياخ	أهل	الأفق	بأنه
ءاه	على	عمّالها	الذين	كانوا	ببعض	الخير
ءاه	على	عبادها	الذين	كانوا	على	الإخلاص والسلوك
ءاه	على	درّاسها	الذين	كانوا	على	الإخلاص
ءاه	على	طلّابها	الذين	كانوا	على	الإخاء
ءاه	على	قرّائها	الذين	كانوا	على	التجويد

ومما لاشك أن عصر الشيخ بن حواء كان عصرا غابت فيه شمس العدل وكثر فيه جور الحكام ومناكرهم، وفي هذا السياق ذكر الشيخ يوسف الزباني صاحب "ليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" ، أن الحكم العثماني كان عموما يمتلك التصرف المطلق في الراعية حيث كان يقتل العرب ويضربهم ويسجنهم وينزل العقوبة بهم ، في حين كان الباي لا يقدر أن يقتل احدا من الأتراك إلا بمشاورة الباشا بالجزائر⁽⁵⁾ .

ومن جهة أخرى وصف هذا العصر بالتردي في الأوضاع الأمنية وكثرة الكوارث الطبيعية والاجتماعية كالمجاعات والابوة والزلازل وغيرها، الشيء الذي نتج عنه تبلور في الشعور الديني ، وميل إلى الاعتكاف في الحياة الصوفية عند الشعب ، الأمر الذي جعل عامة الناس يلتفون حول هؤلاء المعتكفين والمتصوفة لما شهدوه فيهم من إخلاص في العقيدة وصدق في التدين ، طامعين من ذلك كله ، أن يذهب الله عنهم ما أصابهم من البلاء والحزن ، وكأنه ابتلاء سلطه الله عليهم بسبب خروجهم على تعاليمه السامية ، وفسادهم الخلقى . وكان هذا الشعور العام من الأسباب التي أدت إلى شيوع نوع من الأراجيز الصوفية يوسم بـ : الغوثيات.

مكانة أرجوزة سبيلة العقيان في إنتاج المناقب الجهوية:

يقول الشيخ الحاج المهدي البوعبدلي معرفا بـ: الغوثية⁽⁶⁾ أن هذا النوع مشهور في الأدب العربي، وهو على أنواع، فمنهم يعني الناظمين لهذه الغوثيات، تلميذ بن القندوز هو الشيخ الشارف ابن تكوك قريب الشيخ محمد بن علي السنوسي دفين ليبيا. وكانت تنشده هذه الغوثية التي ألفها الشيخ ابن تكوك ومنها قوله:

أرجع شيخني بالقندوز مريد الشيخ المعزوز

عبد	القادر	به	نفور عند	رجال	اللزمية
بالقندوز			المزهد في	وسط	عابد
لابد	في	الذكر	يمجد يخدم	ربي	بالنية
إلى أن يقول:					
يا	ربّ	عذب	حسن يركب	بييت	الله
والطلبة	قعدت	تنهان	وافترقوا	من	بكريا
افترقوا	من	تحمدا	شدا	من	به
العمدا					

غوثة سيدي موسى دفين وادي طاغية القرن 10 هـ / 16م ومنها قوله:

لما عجزت في بلاد الجور عن أخذ ثاري ولدي بالقور
ناديت غوثا يا رجال الحق، إلخ.....

منهم من يستغيث بالصحابة والصالحين، ومنهم من يستغيث بسور القرآن، ومنهم من يجمع بين الكل، ثم تحتّم بذكر الضياع الذي يشتكي منه المستغيث والدعاء للانتقام من الظالم أو تفرّج الكرب.

وقد كثر هذا النوع من الأدب في العهد التركي⁽⁷⁾، وتشبعت أجيال من الأدباء الشعبيين منه، وهو أدب ورثوه عن الأباء والأجداد طيلة العهد العثماني، وقد دون في مؤلفات كثيرة تناولت ذكر العلماء العاملين ومناقب الأولياء الصالحين، ونذكر من بين هذه المؤلفات:

1/- ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الاخيار، لأبي عمران موسى أبي يحيى المازوني الذي خصه لصلحاء وأولياء وادي شلف.

2/- كتاب عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس، لسيدي عبد الرحمن بن عبد الله التيجاني الذي ذكر فيه كما يدل عنوانه أولياء غريس.

3/- فلك الكواكب وطلع الراقي إلى المراتب لأبي عبد الله المغوفل الذي ترجم في هذه المنظومة لعلماء مدينة البطحاء.

4/- حزب العارفين للشيخ موسى بن علي بن موسى اللاقي.

5/- أرجوزة الحلفاوي.

وكان لهذا النوع من التاريخ الجهوي كما قال شيخنا الحاج المهدي البوعبدلي فضل عظيم خصوصا القسم الذي حظي منه بالشرح والتعليق سواء في المنظوم منه أو المنشور⁽⁸⁾.

وفي السياق نفسه يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله "والغريب أن كتب المناقب الشاملة لعصر أو منطقة أخذت تتضعف بعد عمل الفكور. حقا أن بعض العلماء قد كتبوا بعد ذلك تراجم كأحمد بن عمار في كتابه "لواء النصر في فضلاء العصر"، ولكن مثل هذا العمل لا يعتبر من باب المناقب الصوفية المعروفة. ولكن يمكن أن يدخل في المناقب "عقد الجمان النفيس" لعبد الرحمن التيجاني الذي تناول أشرف غريس. و"الدرة المكنونة" لأحمد البوني الذي تناول علماء وصلحاء عنابة و"سبيكة العقيان" فإذا لابن حواء الذي تناول صلحاء نواحي شلف الخ...⁽⁹⁾

ومن الراجح أن منظومة سبيكة العقيان، كانت منتشرة في أواسط المثقفين، وهذا راجع إلى عادة كانت مألوفة عند أهل البلاد الذين كانوا يتبركون بأراجيز بعض الصلحاء، كأرجوزة سيدي بو عبد الله المغوفل الفلك الكواكب والطلع الراقي إلى المراتب الآنف الذكر، إذ كانوا يكتبونها وينسخونها

ويضعونها في خزائنهم للتبرك بها⁽¹⁰⁾. وهذا ما يفسر بدون شك وجود نسخة من سبيكة العقيان والتي عثر عليها الأستاذ أبو القاسم سعد الله بالخزانة العامة بالرباط منقولة سنة 1011 والتي كتب عليها اسم بن قللة الذي كان المبعوث الخاص للأمير عبد القادر لدى قنصلي بريطانيا وأمريكا بطنجة⁽¹¹⁾. والنسخة التي اعتمدها في هذه الدراسة هي في حوزة البشير المحمودي الناسخ المشهور بمدينة البرج ، وتقع هذه المنظومة في 161 بيت، وقد ذكر فيها ناظمها علماء وصلحاء مستغنام ومن سار على دريهم من أهل الولاية والصلاح بوادي شلف وأغريس. ومما جاء فيها من ذكر لهؤلاء الأولياء والعلماء قول الناظم :

أولهم	في	السن	والشيوخ	والاخذ	والتعليم	والرسوخ
العالم	الجليل	شيخ	الملة	شهرته	في الناس	بان قلة
وابن	سعيد	المالفي	الصلاح	وناصر	الشريعة	بن السايح
والعالم	المشهور		بالمحميد	والشيخ	محي الدين	صفو الود
وفرعه	المبارك		الميمون	محبنا	السنوسي	المصون
وضوه	العلامة		الكبير	لا سيما	الحديث	والتفسير
واللؤلؤي	شيخنا		المنور	سليل	خوى	الصلاح
وشبخنا	المنقيض		الشريف	بالداجي	نعتة	معروف
وفارس	الأصول		والبيان	والنحو	والتصوف	والميزان
والمنطق	الاصعب		والكلام	الفايق	المشايع	العظام
محي	العلوم	الدارسات	بالبلد	شيخي	المحقق	الامام
						المجتهد

الخ.....

ومن الملاحظ أن سبيكة العقيان رغم انتشارها وتداولها بين الأوساط المثقفة إلا أنها ظلت بدون شرح على عكس بعض المنظومات والقصائد مثل شرح عقد الجمان النفيس لعبد الرحمن التيجاني الذي شرحه أبوراس الناصري تحت عنوان "إيضاح الخميس وأنوار البرجيس"، وشرح الجمان للشيخ عبد الرحمن وكذلك شرح أرجوزة الحلفاوي للفاسي الجامعي .

وإن شرح سبيكة العقيان وتقدميها لجمهور المثقفين سيكون بمثابة عمل يسد فراغا طالما اشتكت منه هذه المدينة المعروفة بجهادها واجتهادها ولعل سيدي بن حواء هو أحسن شهادة على ذلك ، رحمه الله وأسكنه فسيح الجنان وأحله منازل الرضى والرضوان جمعنا الله به في جنة المأوى. أمين.

الهوامش

- 1 - مارسال بودان (Marcel BODIN) مجلة الجمعية الجغرافية والآثار لوهران، جوان 1933 ، ص: 237.
- 2 - نفس المصدر، ص: 238.
- 3 - سبيكة العقيان، البيت التاسع.
- 4- الريحانة المروحة على القلوب المقترحة، انظر بودان المرجع نفسه، ص: 239.
- 5- نفس المصدر، ص: 67.
6. أبو القاسم سعدالله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ص133 .
- 7 . نفس المصدر

8. أبو القاسم سعد الله ، أول اتصال للأمير عبد القادر ، مجلة التاريخ وحضارة المغرب ، عدد 13
ص 21 .